مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 312 - 324 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

نظرية التأويل في النقد المعاصر

The Theory of Interpretation in Contemporary Criticism

*د لخذاري سعد

Dr lakhdari saad

جامعة أكلي محند أولحاج، قسم اللغة والأدب العربي، بالبويرة، الجزائر

University of Bouira- Algeria

Lakhdari.saad@yahoo.com

تاريخ الإرسال:2019/09/04	تاريخ القبول:2019/10/14	تاريخ النشر: 2020/03/15

ملخص البحث

قطع النقد رحلة طويلة في تكوينه، وتمّ التأسيس على ضوء هذه الرحلة لعدة مقاربات نقدية، انتظمت في منحيين كبيرين: المقاربات البنيوية، والمقاربات السياقية، وتعتبر هذه الأخيرة هي التي فرضت منطقها في الفترة الحالية، ومن أهم المقاربات السياقية نجد المقاربة التأويلية، أو نظرية التأويل؛ فالتأويل يعتمد على مختلف السياقات المصاحبة للنص بهدف كشف بنية النص ومراميه ومعانيه العميقة، فالتأويل مجال ضارب في عمق البحث الإنساني عبر التاريخ، وهو اليوم نظرية من أهم نظريات النقد المعاصر، وهذا ما دعانا أن نبحث عبر هذه الدراسة لنلامس عدة إشكاليات تتعلق بعدة نقاط أهمها: حدود ومفاهيم التأويل، وأصوله، وعلاقته بالحقول المجاورة له، وتشخيص أسبابه، ومكان حدوثه، وكذلك الحديث عن أهم رواده وذكر بعضٍ من مواقفهم. وبهذه الدراسة نأمل أننا قد وضعنا الباحثين في سياق نظرية التأويل، ويكون هذا العمل بمثابة فاتحة لأعمال جديدة.

الكلمات المفتاح: نظرية، تأويل، نقد، معاصر.

Abstract :

The criticism had a long journey in its formation. In light of this journey, several critical approaches were established . They were organized into two major approaches: structural approaches and contextual approaches. The latter is the one that imposed its logic in the present period. The most important contextual approaches are the interpretive approach; the interpretation is based on the various contexts associated with the text in order to reveal the structure of the text and its meanings and deep meanings. Interpretation is a field that is deeply involved in human research throughout

* د لخذاري سعد، البريد: lakhdari.saad@yahoo.com

history. Today, this theory is one of the most important theories of modern criticism.
Keywords: Theory, Interpretation, Criticism, Modern.

أولا: مقدمة

يعتبر التأويل أحد المقاربات النقدية السياقية المعاصرة، فالتأويل له تمثلات وإرهاصات ضاربة في عمق التاريخ منذ اليونان والعرب القدامى، وقد ارتبط في الماضي بالنصوص الدينية التي اكتنفها الغموض في الفهم بسبب قدمها وتغير نواميس اللغة، أما في الفترة المعاصرة فقط ارتبط التأويل بالأدب؛ بسبب الغموض الذي يحيط بالنصوص الأدبية، من الرمزية والمجازية والتكثيف الدلالي. ونظرا لأهمية التأويل ونظريته حذتنا الرغبة لإنجاز هذا البحث، بهدف التوصيف المختصر لنظرية التأويل في النقد المعاصر.

ثانيا: مفهوم التأويل وارهاصاته

أ) مفهوم التأويل

إن عملية التأويل نشاط يتسم بالجهد والتّأني والنظرة الفاحصة،" إن الدّائرة التأويلية تعني أن عملية فهم النّص ليست غاية سهلة، بل عملية معقّدة مركبة، يبدأ المفسّر فيها من أي نقطة شاء لكن عليه أن يكون قابلا لأن يعدّل فهمه طبقا لما يسفر عنه دورانه في جزئيات النّص وتفاصيله وجوانبه المتعددة التي أشار إليها شليرماخر. ومادامت مهمة الهرمنيوطيقا هي وضع المعايير والقواعد، فإن شليرماخر يكتفي بوضع المعايير العامة التي يراها ضرورية لتجنب سوء الفهم. ولكنه من جانب آخر يرى (أن نظرية التأويل –رغم كل التقدم الذي أصابته– ما تزال بعيدة عن أن تكون فنا مكتملا)، ويؤكّد بالدرجة نفسها استحالة أن يستطيع أي تفسير لعمل ما استهلاك كل امكانيات معنى هذا العمل..."[1] ؛ ولهذا وجدت نظرية التأويل لأن النص يكتنفه الغموض والتعقيد والتشابك، مما يتوجب التعامل معه بآليات وقواعد ونظم هرمنيوطيقية فاعلة، ولكن بالرغم من ذلك، إلاّ أن النص لا يستنفذ كل دلالاته ومخبوءاته، ويبقى عصيا عن التأويل النهائي، مما يتوجب تطوير المنهج التأويلي باستمرار حتى يصير ناجعا لاكتناه المعنى وإظهاره.

لقد تعددت وتنوعت مواقف نظرية التأويل، فالهرمنيوطيقا:"... لم تمتلك أرضية خاصة بها، وإنما تابعت المعنى وإدراكه حيثما حلّ. أما فيما يخص النقد الأدبي عند من تبنوا نتائجها

ومنهجياتها المختلفة، فقد ركّزت الهيرمنيوطيقا على المؤلف كمصدر للمعنى، وهذا ما تبناه النقاد التقليديون (بما فيهم قادة النقد الجديد) وفلاسفة اللغة من غير أنصار ما بعد البنيوية. لكن فرضية تحكم المؤلف بالمعنى تعرضت حديثا إلى نقلة عنيفة...أرست المعنى على النص أو على القارئ أو على الاثنين معا، وألغت دور المؤلف، ونجد هذا الاتجاه عند معظم ممارسي النظريات الحديثة التي دعت إلى إقصاء ونفي المؤلّف كنظرية الاستقبال والتقويض وغيرها، ترفض هذه التوجهات ارتباط النص أو معناه بالمؤلف أو قصده، كما ترفض مفهوم المعنى (المحدد) والتأويل الصحيح، وتدعو إلى لا محدودية المعنى"[2]؛ فلقد استقرت نظرية التأويل مؤخّرا على النص والقارئ بعدما كانت تتكئ على المؤلف وما يقصده من نصه الأدبي، فتداخلت التأويلية مع نظرية القراءة والتلقي عن طريق مبدأ أن النص في كلّ مرّة يقرأ من جديد، وبفكرة أن التأويل لا حدود له، وهذا ما فتح النص على أكثر من قراءة، فالنص هو البنية السطحية الأولى التي يلتقي معها القارئ، ولا وجود لأي تأويل من غير نص وبنى لغوية ينطلق منها قارئ له من الخصائص والمواصفات التي تؤهّله للمواجهة، ثم يبدأ نشاط التأويل بالتعمق في البنى لكشف الدوال الثواني وفك الشفرات وانفتاح الخطاب الأدبي على السياق بكل مكوناته التاريخية والفكرية وظروف الزمان والمكان والعوامل السيكولوجية، وبذلك يبدأ النص يأخذ تأويلات تتعدد بتعدد السياقات.

ب) ارهاصات نظرية التأويل

يعود مصطلح التأويل إلى التراثين اليوناني والعربي، فقد ارتبط بـ:"...أفلاطون وأرسطو فضلا عن كتاب آخرين، وترتبط بتيسير ما ليس في طاقة الإنسان وتحويله إلى صورة مفهومة. وهكذا نجد في التراث القديم فكرة الأداء البشري لرسالة الآلهة. ربما كانت الكلمة في التراثين الإغريقي والعربي تردد أصداء ثلاثة هي المنطق المسموع والشرح والترجمة، وهذه الأصداء تجتمع حول حاسة واحدة: تقريب البعيد وإحالة غير المألوف إلى المألوف، وإحالة الآبد إلى حاضر في متناول الفكر، ويقوم المنطق بالإسهام في هذه الوظائف، وقد كانت الأعمال العظيمة منذ أقدم العصور منطوقة أو يراد لها أن تكون كذلك. وبعبارة أخرى لوحظ كثيرا أن الكلمة المكتوبة أضعف وأقل قدرة على حمل القوة التعبيرية التي تتمتع بها الكلمة المنطوقة..."[3] ؛ فالتأويل قديمٌ في وجوده، أُستدعي ليجيب ويرافق النصوص الدينية الغامضة التي تحتمل أكثر من معنًى ودلالة، كما أن العرب احتاجوا إليه ليجيبوا على عدّة أسئلة تُطرح حول النصوص الدينية أو العبارات الفكرية

الفلسفية عن طريق القياس والبرهان والنظر، فالقدامى من اليونان والعرب كانت تلتبس عليهم عدة قضايا فكرية فيستعينون بالمنطق بهدف كشف الأشياء البعيدة المخفية، فقد تطور التأويل قديما وصاحب النصوص المنطوقة بالخصوص لأنها تحمل قرائن قد لا توجد في النص المكتوب، ثم عاد التأويل حاليا ليجيب عن عدة قضايا فلسفية ونقدية أدبية، نظرًا لأن المعنى يتسم بالتخفي والتورية والتضمن، وبالتالي يعتبر التأويل هو الطريقة المناسبة للكشف والاستدعاء والتجلية.

ثالثا: التأويل والحقول المعرفية

أ) التأويل والفلسفة

التأويل:"...فلسفة يراد بها وجه الإنسان، لا وجه التحليل، العلم الطبيعي له مناهجه في فهم الموضوعات أو الأشياء الطبيعية. أما الأعمال فتحتاج إلى تأويل أو علم يلائم النصوص من حيث هي أعمال إنسانية. من المؤكّد أن طرق التحليل العلمي تحول الأعمال إلى موضوعات طبيعية صامتة. والأعمال بحاجة إلى وسائل أخرى أكثر شمولا وإفصاحا عن الجانب الإنساني التاريخي. هذا هو اعتراض الفنومنولوجيا على بعض تحليلات النقد الجديد، والبنائية والتفكيك، وتطبيق فكرة العلامات. لقد شنّع الفنومنولوجيون على مبدأ الحيل والتقنيات في شرح النص، وحاولوا وضع المشكلة التأويلية في إطار الوصف العام للفهم نفسه. ولهذا استوقفونا عند مبدأين آخرين مختلفين ومتفاعلين هما: واقعة فهم النص، والسؤال الأعم عن الفهم نفسه. لابد إذن من مفهوم أوسع يتحرك في داخله تفسير النص"[4]؛ إذا، فقد جاءت نظرية التأويل لتتجاوز كل الآراء المطروحة التي تقارب النص مقاربة مباشرة، فالنص الإنساني نشاط مفتوح عميق يطرح أوجه شديدة الاختلاف والتعقيد، لأن النص تاريخٌ وتجارب وخبرة إنسانية متراكمة، فبالرغم من كل المحاولات في تأويل النصوص التي جاءت فيما بعد البنيوية، إلاّ أن نظرية التأويل تراها غير كافية ولا تلامس الحقيقة الفعلية للنصوص، فالفهم هو التأويل، ولا يتأتّى الفهم إلاّ بالتفسير الذي يراعي أنساقا عديدة منفتحة على الوجود و على العناصر الحافة بالنص، والتي تصنع منه فضاءً نشطًا لا تستنطقه فقط التقنيات، وإقصاء العناصر الحقيقية للنشاط النصي.

ب) التأويل والوجود

التأويل نشاطٌ يمتد عبر مختلف نواحي حياتنا اليومية،" لنلاحظ أن العالم يسمي تحليل المعطيات تفسيرا، وأن الناقد يسمي فحص العمل تفسيرا، وأن المترجم قد يسمّى مفسّرا، وأن

المعلق على الأنباء يؤول الأحداث، أنت تؤول ملاحظة صديق، وتؤوّل رسالة من بيتك، وتؤوّل علامة في الشارع. ومنذ أن نستيقظ في الصباح حتى نستغرق في النوم نقوم بعمليات تأويل مستمرة. أنت تذكر اسم اليوم، وتتفكّر في مكانك من الدنيا، وخططك من أجل المستقبل. وأنت تنهض وأنت تؤوّل الكلمات والإيماءات. التأويل إذن هو أهم عملية من عمليات التفكير. والحقيقة أن الحياة نفسها هي عملية مستمرة من التأويل"[5]؛ فمفهوم التأويل ليس بالأمر اليسير السطحي، بل هو مفهوم يكتسي نظرة متأنية فاحصة، لأننا نستخدم هذه التقنية عبر مختلف المحطّات في حياتنا اليومية، وعبر عدّة ميادين وأشخاص من مجالات مختلفة، فلا يقتصر التأويل على ساحة الأدب والنصوص التي تحتاج إلى فهم وتحليل وتفسير بهدف الكشف، بل التأويل موجود في عقل الشخص اليسير مثلما هو موجود في عقل الشخص المتخصص، وبالتالي عملية التأويل توصلنا إلى حل العديد من المشاكل المتعلقة بالفهم والاستيعاب واتخاذ المواقف من الأشياء.

ج) التأويل والظاهراتية

لقد رافقت الظاهراتية الهرمنيوطيقا، فـ" من المظنون أن الهرمنيوطيقا أكثر فاعلية في التأويل الأدبي أو النصي. فالهرمنيوطيقا عبر مراحل تشكلها الموجّه لتأويل الكتاب المقدّس، ومن خلال التنافس مع الوصف الظاهراتي كمقترب للأشياء القائمة في العالم، تكون أكثر قبولا في تأويل قصائد من قبيل قصيدة روبرت فروست (الطريق غير المطروقة). فإذا تذكّرنا أن الظاهراتية الهرمنوطيقية تعنى في المقام الأول بفعل التاويل أكثر ممّا تُعنَى بوصف معنى الشيء قيد الفحص، يصبح واضحا أن تأويل نص كقصيدة (الطريق غير المطروقة) سوف ينتج فهمًا للقصيدة"[6]؛ فبعدما كان التأويل مقصورا على النصوص الدينية، امتدّ لمجال الأدب خاصة لما ارتبطت الهرمنيوطيقا مع الظاهراتية، فالهرمنيوطيقا الظاهراتية لا تكتفِ فقط بالوصف كما هو ظاهر، بل تحاول تفسير العمل الأدبي بهدف فهم كيفية تشكّل المعنى وتطوره، إن نشاط التأويل يمتدّ فيما وراء العمل الأدبي ليعرف العناصر التي ساهمت في الإنتاج وكيفية تلقينا لهذا العمل، عن طريق التعمق ومعرفة العناصر الخفية الكفيلة بتوليد المعنى.

لقد كان "إنغاردن" من الذين استلهموا من ظاهراتية "هوسرل" لبناء التأويل،" فإنغاردن عُني بالعمل الأدبي بوصفه معطى في مركّب متعالٍ من الطبقات:

1- طبقة أصوات الكلمة والتشكيلات الصوتية.2- طبقات وحدات المعنى ذات التنظيمات المتنوعة. 3- طبقة الجوانب التخطيطية المتعددة، والجانب المتصل، والسلاسل. 4- طبقة الموضوعيات الممثلة مع تغييراتها...وهناك طبقة خامسة تُبنى على هذه المستويات الأربعة: طبقة الخصائص الميتافيزيقية التي تتخلل هذه الطبقات. والنقطة الأساسية هي أن جميع هذه الطبقات المتنوعة تحدث على مستوى متعالٍ، لاسيما طبقة وحدات المعنى، وتنوع الجوانب التخطيطية، وتعدد الموضوعات الممثلة، وهي جميعا في متناول الوصف الظاهراتي"[7]؛ فالتأويل الظاهراتي ينظر إلى العمل الأدبي بوصفه بنية لسانية، الهدف منها هو تحقيق الفهم، ولكن يضاف إلى ذلك ما وراء هذه البنية اللسانية من أشياء وعناصر تحرّك هذه البنية وتساهم في وجودها وغايتها، إن التأويل الظاهراتي هو فلسفة للغة الأدبية اللسانية، بالبحث في ماهية الشيء وكنهه والميتافيزيقا المتعلقة بما وراء اللغة من أحداث وأفكار وموضوعات تغذّي الفهم والتفسير والتحليل العميق للأدب.

رابعا: بواعث التأويل

يوضح "رحمان غركان" أن للتأويل بواعث تصنعه، ويمكن توضيح ذلك بالمخطط التالي الذي أنجزه:[8]

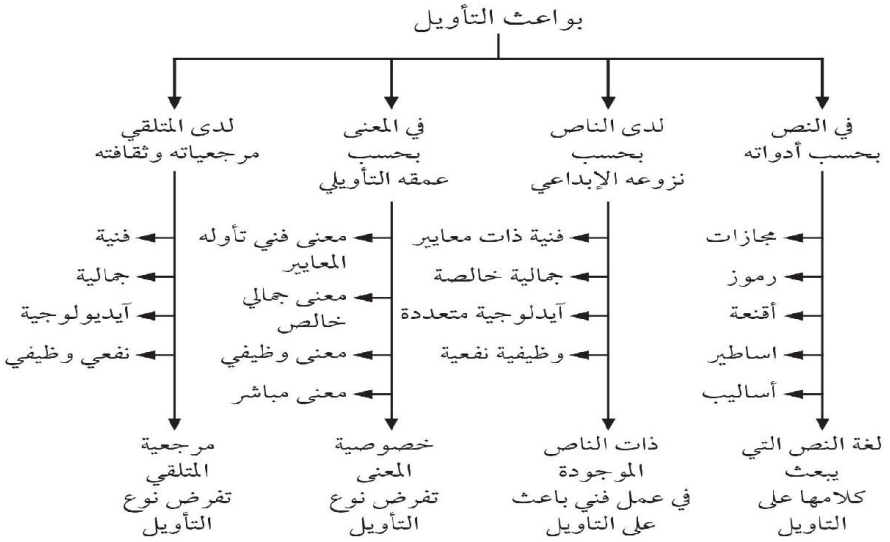

نلاحظ من خلال المخطط أن التأويل يتم على مستويات بدءً من الإنتاج وصولا إلى التلقي. فيمكن للنص أن يلتبس بفعل الخيال والتعقيد المعنوي باستعمال الصور البيانية التي تحتمل عدة معانٍ بسبب عدم مطابقة معنى الحقيقة، وبسبب الرمز الذي يأخذ بالنص إلى آفاق واسعة من التدليل والنظر المعنوي، فيستوجب استحضار الأسطورة في بعدها الإنساني والتراثي، كما أن المؤلف له دوره في صناعة التأويل بسبب قصده الذي لا يمكن امساكه بيسر، وكذلك اضفاءه الجمالية على النص التي قد لا نفهمها بيسر، كما أن الكاتب بوسعه توظيف الإيديولوجيا التي تسري في عمق النص وفي سرديته التي تسري ضمن الخطاب الأدبي، كما أن لكل خطاب أدبي خصوصيات معنوية حسب مجال الكتابة، لأن اللغة تتشكّل أشكالا عديدة ويلتبس بعضها ببعض، مما يفرض النظر بتأنٍّ لإدراك خروج اللغة عن الاستعمال العادي المألوف، ثم هناك أخيرا القارئ والمتلقي، كون القراء لا يفهمون بنفس الفهم والتصور لأن التجربة والسياق والثقافة والمستوى يتعدد، مما يفرض تعدد التأويل والفهم والتفسير، بحيث أنه كذلك لا يمكن أحيانا أن تتفق أيديولوجية المؤلّف مع أيديولوجية القارئ، مما يأخذ النص إلى وجود تأويلية جديدة. وانطلاقا من كل هذه العوامل والمحطات يبدأ النص بالتفاعل والتوالد والتعدد والاختلاف، وظهور تأويلات غير محدودة لنص لغوي واحد بكاتب واحد.

خامسا: أعلام التأويل

أ) فريدريك شلايماخر

يعد فريدريك شلايماخر (Frederic schleiermacher) من رواد نظرية التأويل، وتقوم تأويليته حسبه:"...على أساس أن النص عبارة عن وسيط لغوي ينقل فكر المؤلف إلى القارئ. وبالتالي فهو يشير —في جانبه اللغوي– إلى اللغة بكاملها. ويشير —في جانبه النفسي– إلى الفكر الذاتي لمبدعه. والعلاقة بين الجانبين —فيما يرى شليرماخر– علاقة جدلية. وكلما تقدم النص في الزمن صار غامضا بالنسبة لنا، وصرنا —من ثم– أقرب إلى سوء الفهم لا الفهم. وعلى ذلك لابد من قيام (علم) أو (فن) يعصمنا من سوء الفهم ويجعلنا أقرب إلى الفهم. وينطلق شليرماخر لوضع قواعد الفهم من تصوره لجانبي النص، اللغوي والنفسي. يحتاج المفسّر للنفاذ إلى معنى النص إلى موهبتين، الموهبة اللغوية، والقدرة على النفاذ إلى الطبيعة البشرية..."[9] ؛ فالتأويل حسب شلايماخر هو الفهم للنص اللغوي، وبأن النص اللغوي يفقد مع مرور الوقت وضوحه،

فيصير غامضا بمرور الزمن هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من التقرب من نفسية مؤلّفه بهدف فهم القصد، أي أن شلايماخر مناقض للبنيوية التي ترى بأن المؤلف لا أهمية له في فهم النص، فالجانب النفسي هو الذي يعضد الإطار اللغوي بهدف توليد معاني النصوص، يتطلب بعد ذلك عدة أشياء، أي نظرية تأويلية للنصوص بمصطلحات وقواعد وأسس، وكذلك، متفهّم ناقد يفهم نواميس اللغة في الحمل الدلالي والمفهومي، ثم تضاف الخبرة إلى نفاذ نفسية المؤلف ووضعه الداخلي، وعلى ضوء هذه المعطيات يمكن الحصول على الفهم المناسب للنصوص بتظافر عناصر لغوية، وعناصر سياقية غير لغوية.

ب) هانس غيورغ غادامير

إن مصطلح التأويل ونظريته لما تقع على مسامعنا يتبادر إلى ذهننا أفكار وطروحات "هانس غيورغ غادامير" (H.G.Gadamer) (1900م/2002م)،" تتجلى عالمية التجربة التأويلية عند غادامير في التفاهم والحوار كعلاقة جدلية، منتجة وخلاقة، بين الـ (نحن) و (التراث) وبين (الأنا) و (الآخر) قوامها السؤال والجواب، ودليلها المساءلة والتجاوب، استقصاء لا اقصاء وحوار لا تحوير، انطلاقا من الحوار الذي نحن عليه، نحاول الاقتراب من عتمة اللغة. نشاط التأويل كما يبتغيه ويرتضيه غادامير هو تلك العتبة التأويلية التي تنقلت من قبضة العتمة اللغوية، أي لا يختزل اللغة إلى مجرد لعبة العبارات وسحرية المنطوقات. اللغة تكتمل معقوليتها وتنكشف قوتها وطاقتها وتتجلى حكمتها في بلاغة الحوار"[10]؛ فغادامير يرى أن اللغة أيًّا كانت وثيقة أو إنتاج أدبي أو أي منجز لغوي ينبغي أن ينفتح على الحوار مع التراث والتاريخ كسياق مكمّل لهذه التشكيلات، وإذا كان التاريخ والتراث متغير ومختلف حوله، فبالتالي التأويلات ستأتي متعددة ومختلفة وثرية ولا محدودة، إن الاعتقاد البنيوي حول اللغة بأن النص بنية تفهم من ذاتها غير مقبول في منطق غادامير، بل اللغة عليها أن تكون طيعة ومنفتحة حتى نملأ فراغات النص وفجواته ونثريه بما يحقق فهمه وتفسيره، لأن النصوص المنتجة تكتسب حقيقتها ومقصودها لما نعيد لها ظروفها التاريخية والسياقية.

يفسّر "غادامير" التأويل بأنّه عملية فهم، وذلك بربط وعينا الحاضر بالتاريخ،"...ومن ثمّ يوصف حدث الفهم في واحدة من أشهر استعارات جادامير بأنه امتزاج الأفق الخاص بالفرد المتلقي بالأفق التاريخي المستقل لنص أدبي ما على سبيل المثال فكرة أدبية خادعة، فليس هناك

خط فاصل بين الأفق الماضي والأفق الحاضر. يقول جادامر عندما نضع وعينا التاريخي نفسه خلال الآفاق التاريخية، فإن هذا لا يستطيع العبور إلى عوالم غريبة لا ترتبط على أي نحو بعالمنا، ولكنها مجتمعة تكون الأفق الواحد الكبير الذي تتحرّك من داخله والذي يعانق فيما وراء الحاضر الأعماق التاريخية لوعينا الذاتي، إنّه أفق واحد في الحقيقة ذلك الذي يعانق كل شيء احتواه الوعي التاريخي"[11]؛ ففي عملية التأويل حسب هذا الرأي فإن المتلقي لما يتفاعل مع أي تركيبات لغوية غريبة أدبية تخييلية، فإنه عليه أن ينفتح على التاريخ لأنه جزء من وعينا الكبير، بعد ذلك يمكننا تحقيق الفهم والتفسير والتحليل المناسب، لأننا نعيد السياقات المدعمة لفهم البنى اللغوية، فالتاريخ يحمل الكثير من القرائن المساعدة على عملية التأويل، لأن هناك مجازات تنتقل فيها اللغة من صورة إلى صورة جديدة تبدو غريبة، وهناك أحداث وعناصر تاريخية صاحبت عملية إنشاء التراكيب الغريبة الجديدة، فالوعي بالعالم والأشياء محط النظر يتّضح باستحضار التاريخ الطويل الذي هو جزأ لا يتجزّأ من وعينا الطويل.

ج) فلهلم ديلثاي

يعد "فلهلم ديلثاي" (Wilhelm Dilthey) أحد شارحي نظرية التأويل، فقد توصّل:"...إلى ما أسماه (الحلقة الهيرمنيوطيقية)، ومفادها: كي نفهم أجزاء أية وحدة لغوية لابد أن نتعامل مع هذه الأجزاء وعندنا حس مسبق بالمعنى الكلي، لكننا لا نستطيع معرفة المعنى الكلي إلاّ من خلال معرفة معاني مكونات أجزائه. هذه الدائرية في الإجراء التأويلي تنسحب على العلاقات بين معاني الكلمات المفردة ضمن أية جملة وبين معنى الجملة الكلي، كما تنطبق على العلاقات بين معاني الجمل المفردة في العمل الأدبي والعمل الأدبي ككل. لا يعتبر ديلثاي هذه الدائرية حلقة مغلقة أو خبيثة؛ إذ يرى أننا نستطيع التوصل إلى تأويل مشروع من خلال التبادل المستمر بين إحساسنا المتنامي بالمعنى الكلي وفهمنا الاسترجاعي لمكوناته الجزئية"[12]؛ فحسب ديلثاي فإنه على المؤوّل تجزئة الخطاب محل النظر إلى أجزاء، ثم إعادة ربط هذه الأجزاء لمعرفة الدلالة الكلية، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لدينا فهم أولي للمعنى الكلي، قبل القيام بعملية التجزئة، لأن هذه الطريقة تشبه عملية التحليل في العلوم الطبيعية، وذلك بأخذ عينة وتعميمها على الكل، ولكن الفارق هنا هو تجزئة الكل إلى عينات ثم إعادة جمع النتائج، فنكون بذلك علميين في النشاط التأويلي القائم على الفحص والنظر الدقيق.

د) بول ريكور

يعد "بول ريكور" (Paul Ricoeur) من العلماء الذين قدّموا الكثير للتأويل عمقًا وفلسفةً ورأيًا، وحسب ريكور:"...فإن مفهوم التأويل يتلقى هو أيضا قبولاً محددًا. وإني أقترح أن يُعطى ما أعطي الرمز من اتساع، فنحن نقول إن التأويل هو عمل الفكر الذي يتكون من فك المعنى المختبئ في المعنى الظاهر، ويقوم على نشر مستويات المعنى المنضوية في المعنى الحرفي، وإني إذ أقول هذا، فإني أحتفظ بالمرجع البدئي للتفسير، أي لتأويل المعاني المحتجبة. وهكذا يصبح الرمز والتأويل متصورين متعالقين، إذ ثمة تأويل هنا حيث يوجد معنى متعدد. ذلك لأن تعددية المعنى تصبح بادية في التأويل"[13]؛ فالتأويل حسب ريكور يرتبط بالرمز، نظرا لاتساع ميدان التأويل مثله مثل الرمز، ونشاط التأويل متعلق بنشاط فكري يقوم به الإنسان بهدف الكشف والتجلية، إن وجود عملية التأويل جاءت نتيجة تعدد المعنى للحرف الواحد، ما يدعونا حسب ريكور لاعتبار العالم من حولنا رمز تأويلي، فالتأويل مرتبط بأنشطة عقلية ونقاش فكري، وانفتاح دينامي على الصور لإعطائها حرية التدليل والتعدد.

سادسا: مصطلحات السيمياء والتأويل

لقد خدمت المصطلحات السيميائية التي وضعها "شارلز سندرس بيرس" (Charles sanders Peirce) مجال وميدان التأويل في النقد،" يتطلب التحول من وهم حرية الاختيار التأويلية إلى إدراك الإلزام التأويلي تدشين مصطلح، حين لا يكون جديدا تماما (فإن تشارلز سندرس بيرس استخدمه في سياق جد مختلف) سينفع في التمييز بين نمطين من المؤولين: وهما الناقد المؤول الذي أسميه المؤول (Interpreter)، والشخصية المؤولة التي سأشير إليها من الآن فصاعدا بالمؤولة (Interpretant). إن هذا المصطلح يستحضر مصطلح المحلل (Analysant) غير المتطابق معه، فالموقف التحليلي مشابه للموقف الذي كنّا قد حددناه: إذ أن كليهما يتضمن (على الأقل) فعالية تأويلية مزدوجة، أي تأويلا مرفوعا للأس اثنين. وعلى نحو تراتبي، تحتل المؤولة منزلة أعلى من منزلة المروي عليه، وأعلى من المتلقي المتخيل قصصيا أو من أي تنوع آخر من تنوعات القارئ الضمني، في كونه ليس ممثلا مساعدا ولا تركيبا نظريا ولا شكلا غائر النقش، ولكن، بدلا من ذلك لكونه متمادًّا مع الراوي بضمير المتكلم أو مع بطل القصة..."[14] ؛ فلقد تعمّقت السيميائية في البنى العميقة للعمل الأدبي، فصارت السيمياء بذلك

نشاطًا تأويليا، فاستحدثت العديد من المصطلحات والتحديدات التي تتعلق بإحكام الفهم في تلك البنى العميقة التي تفسّر وتشرح البنى السطحية، حيث تعتبر مجهودات بيرس المنطقية تأويلاً وبحثًا عن عملية الفهم للعديد من الظواهر الإنسانية ومن ضمنها الأدب.

سابعا: القبول والرفض في التأويل

يرى بعض النقاد أن التأويل مرتبط بعملية القبول والرفض:" فأن نؤوّل هو أن نقبل ما ندركه، وندع ما يتعارض مع مخططنا الدلالي. فالقبول ثمرة النرجسية التي هي بذاتها أوالية من أواليات البقاء. والنرجسية حسب فرويد، هي شبكة البنية التي تمكّن الناس من أن يحدّدوا ويحتفظوا بهوياتهم على نحو عقلاني وعاطفي، ونتيجة لذلك فهم يدمجون أنفسهم. فالفن، شأنه شأن الحب والأنثروبولوجيا، يقوي من استكشاف مصادر الذات، كما يولّد التعدد في المرايا صورة ملائمة ظاهريا لأن تصبح واقعًا. إن جمهورا ما، هو جمهور من المؤيّدين. فالجمهور يبرز من خلال الحاجة الإنسانية لإثبات المرء لنفسه قدرته على المواكبة، أي أن بإمكان المرء أن يردّ العشوائية المقلقة في العالم والتاريخ إلى نموذج"[15]؛ فالمتلقي لما يحتك مع النص الأدبي فإنه فإنه يحاول الاطمئنان إليه، والتمسّك بالأنساق التي تتفق مع الذات أوّلاً، ثم محاولة تطويع بقية الأنساق الغامضة حتى تصير مثل الأولية المقبولة، وهذا العمل والنشاط هو تأويل، وبالتالي نجاح عملية التأويل مرتبط بقدرة الكاتب على فهم طبيعة المتلقي وهضمه للخطاب، وذلك لأن نفور القارئ من التعامل مع النص يعني فشل التأويل، بل انعدامه، علينا أن نحترم ذات القارئ المؤول، بسبب نرجسيته وحبّه لمخططاته الدلالية الأولية.

ثامنا: موقع النشاط التأويلي

النشاط التأويلي له مكان محدد بين الذات والشيء، فالهرمنيوطيقا "...لا ترَ الذات مصدرا للسلطة، فالمؤوّل يشتغل في منطقة (المابين) حيث المكان الذي تحدث فيه عملية المعرفة، وتقف فيه الذات في مقابل الشيء. وهكذا تكون مهمة الهرمنيوطيقا الاشتغال في فضاء الاختلاف بين الذات والموضوع، بين المفكّر والفكر، بين المتكلّم والمتكلّم عنه. وكما لا تقدر الهرمنيوطيقا على الاشتغال انطلاقا من موقع الذات، فإنّها لا تقدر كذلك على أن تضعَ نفسها في موقع الشيء نفسه الذي يسعى إلى أن يؤدّيَ دوره كما لو كان مصدرًا للمعرفة؛ فالتأويل —وليس الشيء ولا الذات– هو الذي يقدّم معرفة وفهمًا"[16]؛ وبالتالي فإن التأويل تفاعل بين ذات تحاول الإمساك

بالفهم والنتيجة والشرح المناسب، وبين الشيء الذي يقع عليه التحليل والتفسير، ولكن هذا الشيء ليس له صورة محددة وواضحة، بل متعددة ومختلفة من ذات لأخرى، فالتأويل هو نشاط دائم وحيّز مفتوح من القراءات المدعّمة في كل مرّة بحجج، إن هذه العملية تفتح الباب لمؤولين عديدين، وليس لكل واحد الحق في ادّعائه المعرفة النهائية، لأن النظرة تختلف وتتعارض، وربما قد تتفق أحيانا، ما يهم أن التأويل يتسم بالديناميكية والاشتغال المستمر بين ذات وشيء.

تاسعا: خاتمة

بعد الخوض في موضوع التأويل وأهم العناصر المتعلقة بنظريته يمكننا تدوين بعض النتائج نذكرها فيما يلي:

– لقد ارتبط التأويل بالفلسفة قديما وحديثا لأنه نظام قياسي رياضي يستدعي المنطق والتحديدات الحسابية الفلسفية.

– التأويل كموضوع تم الخوض فيه قديما من طرف اليونان والعرب الذين احتاجوه في فهم النصوص الدينية، وقد أفاد الفلاسفة العرب من مجهودات سابقيهم من اليونان.

– هناك أسماء فلاسفة ساهموا في تطوير حقل التأويل، فهم فلاسفةٌ ونقّادٌ في الوقت نفسه، ناقشوا كل العناصر المتعلقة بالتأويل، كالفهم والتفسير والتاريخ، وقدّموا الكثير من المصطلحات والكشوفات التنظيمية.

– يعتبر التأويل موضوع اهتمام عدة حقول كالفلسفة والدين والأدب والأيديولوجيا والأنثروبولوجيا، وتعتبر أغلب حقول المعرفة الإنسانية خادمةً للتأويل ونظريته.

– تعتبر نظرية التأويل من أهم مقاربات النقد الأدبي، فهي تتعلق بكشف مغزى النص وتفكيك رموزه وأسراره، وتستخدم عدة عناصر حافة بالنّص لاستنطاقه وتفجير مخبوءاته.

هوامش

[1] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط7، المغرب، 2005م، ص: 22، 23 .

[2] ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، لبنان، 2002م، ص: 93، 94.

[3] مصطفى ناصف، نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، ط1، جدة، 2000، ص 22.

[4] المرجع نفسه، ص 20.

[5] المرجع نفسه، ص 20.

[6] هيوج. سلفرمان، نصّيات، بين الهرمنوطيقا والتفكيكية، تر: على حاكم صالح، حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص 33.

[7] المرجع نفسه، ص 35.

[8] رحمان غركان، "في بواعث التأويل وآلياته"، مجلة العميد، المجلد الأول، العدد الأول والثاني، أيلول 2012، العراق، ص 170.

[9] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص: 20، 21.

[10] هانس غيورغ غادامير، فلسفة التأويل: الأصول، المبادئ، الأهداف، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، ط2، الجزائر، 2006، ص: 24،25.

[11] صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر ومصطلحاته، ط1، دار ميريت، القاهرة، 2002م، ص 150.

[12] ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 89 .

[13] بول ريكور، صراع التأويلات، دراسات هيرمينوطيقية، تر: منذر عياشي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2005م، ص 44 .

[14] سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل، تر: حسن ناظم، علي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2007، ص: 199، 200.

[15] المرجع نفسه، ص: 222، 223 .

[16] سعيد الوكيل، "السيميولوجيا الهرمنيوطيقية في التأمل النقدي المعاصر"، المؤتمر الدولي الخامس للنقد الأدبي (التأويلية والنظرية النقدية المعاصرة)، القاهرة، 14-17 ديسمبر 2010، ص 07.